٤٩٦

في طريق رجعته الى بلاده وثالث اسمه ليدى اختار الدخول في خدمة الامبراطور اكبر وما رجع
الى بلاده الا الرابع منهم المدعو فيتش وكان يوحنا نيوبري ورالف فيتش كبار هذه السفرة
مجملاً من الملكة اليزابث مكتوبات الاول منها للامبراطور المغولي اكبر بعنوان جلال الدين اكبر ملك
كامبايا يتوسل فيه اليه بالنظر الرأفة والحماية في مصالح العمومية لرجال جاؤا اليه من جهة قاصية
من اطراف المعمورة في طلب التجارة في بلاده وممالكه ووعد بحسن النظر والحماية ايضا والمعاملة
لكل من يأتي من رعاياه الى بلادها وممالكها والمكتوب الثاني لملك الصين مشتمل على عين هذه الحكاية
وسافر هولاء المبعوثون في مبادي سنة ١٥٨٣ فكانت مكاتيب نيوبري من حلب وبغداد جميعها
مخصوصة تقريبا بحكايات الاشغال التجارية وما حصل له ادنى سرور مما اشغال التجارة في بغداد وقال
ان بيع البضائع فيها بطئ الحركة جدا مع شدة الصعوبة ولو كان معه نقود كافية فانه كان يمكنه بيسر
الحصول على اصناف تحايف وبهارات بمقادير وافرة وباثمان موافقة في السعر والقيمة ثم سافر من
بغداد الى البصرة من دون ان يجني ادنى ثمرة من فائدة ثم منها توجه الى هرمز ووقع في اشغاله
فيها من دون معارضة فلبث هذه الحالة العظيمة مدة اسبوعا ومن بعد مضي الاسبوع قام عليه عدو
له تاجر ايطاليا اسمه ميخائيل اسطروبني حصلت له من غيرة وحسد في التجارة وكان ميخائيل المذكور
عمل وكاسب جم وادعى على نيوبري وصاحبه فيتش بدعوى باطل فوقع القبض على الاثنين واودعا
في السجن فكتب نيوبري من شدة الخوف وهو في السجن مكتوبا الى عدوه في البصره يقول يمكن انهم
يقطعوا رقابنا او يودعونا في السجن ابدا طويلا والله يفعل مايريد ومع هذا فانهما مابقيا في
السجن مدة طويلة بل ارسلوا سريعا الى جاو جوواه وبمجرد وصولهما اليها من بعد سفر صعب بل
وجدا انفسهما ايضا في سجن ولما اقيمت مسئلة التحقيق عليهما سيما ماظهر عليهما شي سوى التداخل
في امور التجارة فاحتجوا عليهما وجعلوهما تحت مسئولية مسئلة كانت وقفت بمعرفة العمود وان قسيس
دراق حضور صاحبه بعض عيارات نارية على غليون برتقالي بالقرب من ملقة ولاشك ان دراق
كان اطلق كثير من العيارات النارية على اجناس مختلفة من الغالبين في تلك الجهة وفي كل جهة وجدها
فيها فادرى نيوبري عدم معلوميته بهذه الاشغال وشك في حصولها فخنقوه بالقوة بشال العود
التي اظهرها البرتغاليون على ملكته ووقفت مسئولية الملكة على ام راسه فصرخ وقال يا للعجب من عموم
العدل والانصاف مابال الفرنساوية والفلمنكيين والجرمانيين والفرس والترك والمسقوبيين
وعموم امم اوروبا واسيا مسموح لهم بحرية الاقامة والتجارة في جوواه وما بال رجال الانكليز
لا يميزهم يعاملون فيها باشنع المعاملات الوحشية الابجية فاعيد الى السجن ومن بعد ان لبث فيه مدة
شهر تقريبا حصل الافراج عنه من بعدها وقع على حكم بمبلغ الفين باردوس من النقود وان
لا يخرج من المدينة من دون رخصة من حكومتها وفي مدة هذه الكتابة ماكان له ميل في الخروج منها
لانه كان اخذ لنفسه منزل في احد شوارعها الواسعة ووجد انخفاض في التجارة عظيمة الفائدة ثم
قابل من اصطفان صحبة وصداقة كبيرة وكان في هذا الوقت في خدمة تحت يد رئيس اساقفة جوواه
وكذا من شخص اسمه يوحنا لنشكوتن من ملاحي الفلمنك وساعده في مصاعبه وامطابه حقق مقتضى
بعض الحكايات التي نشرها فيتش فيما بعد كان هذا المروق غش وريا فقط ووقعت السرقة والاختلاس
في بضائعهما والتزاما على تقديم هدايا وصرف مصاريف كبيرة في ان سعيا في انفسهما والمحصى عليهما
شهور في الاقامة في جوواه في غاية المحنة والشدة عرضا للحاكم يستغيثان برحمته فجاوبهما جوابا
عقيطا حادا ان يستفيا وانه مقام عليهما قضايا يلزم النظر فيها في المستقبل فجزع جزعا شديدا
من انه ربما يصيرا رفيقين او بينهما في تهمة تضيع رقابهما فيها فهربا في الحالة التي لا يمكن لهما بشر
الحصول على حريته وخلاص انفسهما على الهرب والنجاة وفي ٥ ابريل سنة ١٥٨٥ هربا خائفان
من المدينة بتر قبان وسارا في داخل ارض الهند فرارا من ارض بنجوم وشاهدا في مدينة بلجوم
السوق الكبير الموجود فيه اصناف الالماس والاحجار الكريمة ثم وصلا في سيرهما الى المدينة السلطانية
وهي مدينة بيجابور والى هذا المحل انتهت حكايات يوحنا نيوبري وصار رالف فيتش هو
الحاكي عن الذي وقع في المستقبل فقال انهم شاهدوا (الجامع المبعوثين) في مدينة بيجابور الالات
والافتخار في الديانة الوثنية والاورمانات والاجام المجاورة لها المملوءة بما لم يمكن عده ولا
حصره من الهياكل والمعابد والاصنام التي بعضها في هيئة البقر وبعضها في هيئة القرود والناس
وبعضها في هيئة الطواويس وبعضها مثل العفاريت وانذهل فيتش من هيئة حرب الفيلة مع بعضها
وكذا من رؤية المعادن النفيسة الموجودة فيها ووفرة الذهب والفضة ثم سار فيتش من مدينة
بيجابور حتى وصل مدينة جولكنده فوصفها بالظرافة والجمال وهيئة مساكنها العظيمة المبنية بالطوب

٤٩٧

بالطوب الاحمر واخشاب الصناعة واقليمها لاخصب الكثير الفواكه والاثمار اللذيذة الطعم والنكهة
ومعادن الالماس الموجودة في ضواحيها ثم بلغ فيها اخبار مدينة ماسيلبتنم بانها مدينة كبيرة متسعة
بتجارات واسعة ثم سار منها جولكنده نحو الشمال في داخل ارض الدكهن حتى دخل مدينة برهانبور
عاصمة مملكة كانديش ووصف هذه الجهة بانها كثيرة الخصوبة وكثيرة الاهل والسكان ولوان
منازلها مبنية من الطين والقش وقال انه في مدة فصل الامطار الذي كان موجودا فيها شوارع
المدينة لا يمكن المرور فيها من كثرة تيارات المياه السائلة في شوارعها مثل الانهار واندهل من رؤيته
عقود نكاح الهنود ورأى ان الاولاد في سن ثماني سنوات او عشرة يتزوجون ببنات في سن خمس سنوات
او ستة واحتفالات الزواج تقام بشعاير ومصاريف فوق العادة والعروسين يركبان ويطاف بهما
في الشوارع بالطبول والزمور والالعاب ثم سار الى مندو العاصمة القديمة لمملكة مالوه فقال انها
مدينة قوية التحصين مبنية فوق صخرة عالية لبث الامبراطور اكبر في حصارها اثني عشرة سنة حتى
فتحها وتغلب عليها ثم سار منها الى مدينة اگره ووصفها بانها مدينة كبيرة كثيرة الاهل والعمران
لكن ودعى لو تقدره مساكنها مبنية بالاحجار وشوارعها عريضة ظريفة وفي هذا الوقت كان مقر الامبراطور
في مدينة فتحبور ولوان فتحبور كبيرة الاتساع الا انها اقل ظرافة وجمالا من مدينة اگره وبما انها اقل
جاوهما اگره فكان عظمها الوقتي وكبر سعتها متولدا مما وجود ديوان الامبراطور فيها وعسكره وقال
ان عموم الطريق الواصل بين هاتين المدينتين الكبيرتين يشابه سوق كبير بحيث يظن انه لا يوجد
رجال في المداين واستغرب من رؤية ركوب الامراء في عربات صغيرة منقوشة بالذهب ومغطاة
بالحرير او بالقماش الظريف الغالي يجر الواحدة منها زوج من الثيران صغيرين في حجم الكلاب ثم شاهد
على ضفتي نهر جومنا الاحتفالات الدينية المختلفة المذاهب للهنود وهيئات الغسل والاستحمام
عند البراهمانيين وحضورهم الى الما معلق في رقابهم الخيط المقدس عندهم ويدخلون في الما ويغطسون
بغاير اوجيه ويرفعون الما بايديهم على روسهم وابدانهم ويحبون الاستحمام والاغتسال بالما البارد
ولوان مياه النهر ما تحصل فيها برودة ويصفون في داخل الما وهم عرايا ويصلون لحنهم ويا كلون و
هم عرايا واما نسوانهم فكبيرهم خطايا هم فانهم ينبطحون على الارض ويقومون ثم ينبطحون و
يقومون الى تمام ثلاثين مرة او اربعين ثم يرفعون ايديهم الى الشمس ويلثمون الارض وايديهم
وارجلهم ممدودة على طولها وفاقي من عشرة وعشرين وثلاثين الى الاسوة يفنين ويغسلن
انفسهن ويمشن شعار فرايضهن وسننهن ورأى كثيرا من عرايا الا يليق الفقرا حكى فيتش عنهم حكايات
كبيرة وبالخصوص رجل منهم مهول الصورة ذقنه عريضة كبيرة كثة وشعره نازل الى تحت رقبته بدنه وطول
اظافره اصبعان (وليس هذا الطول في الاظافر بعجيب فاني رأيت في سيلان رجلا من طائفة الاهالي
السنهاليزيه طول ظفر اصبعه الخنصر خمسة عشرة سنتمتر فانه هف انا ايضا من رؤيتي اياه وقال لي انه
معارضة البيع وانه لا يبيعه باقل من عشرة روبيات) وهذا الرجل الذي رآه فيتش لا يمكن ان يقطع
شي عنه ولا يتكلم حتى لو كلمه الامبراطور ووصف فيتش البراهمة كما وصفهم غيره من معاصري الكتابة
فقال انهم ارباب مكر وخداع يفوق مكر اليهود وخداعهم وكان فيتش مصحوبا بسفرته هذه بما لقي
موسى جماعته ومن الاحوال الغريبة انه ما ذكر في كل حكايته شي عن مقابلته الامبراطور اكبر او المخابرة
في كلامه معه بل قال انه عند سفرهم من اگره فضل غيليوم ليدي او ليدز في ديوان الامبراطور
وكانت صنعته صايغا جواهري فبقي في الديوان من اجل هذه الصنعة واقام له الامبراطور عسكن
حصان وخمسة من الجواري ومعاش معتبر ثم توجه الى ايلوه اي الله اباد وذكرها فيتش
اسم براغ وهو تحريف پرياغا ومعناه مجمع النهرين وهذا الاسم مطلوق بالخصوص على ملتقى نهر
الگنج مع نهر جومنا ثم نزل فيتش في نهر الگنج حتى وصل مدينة بنارس وشاهدها مع العجب والاستغراب
المقر الاكبر للهنود في التجارة والخزعبلات والهياكل والمعابد العديدة المشحونة بها المدينة وشاهد
هيئة عبادة الاصنام الموجودة في هذه الارض فوجدها مازالت موجودة على منوال كبير اكثر مما كانت
عليه من قبل وكل محل مملوء باصنام مختلفة الهيئة والحجم الوانها قبيحة المنظر والصورة فمنها الاسود
ولها مخالب من النحاس الاصفر باظافر طويلة ومنها الراكب على طواويس وطيور اخرى قبيحة الصورة
ولها مناقير معوجة مثل المنطيف ووجوه مثل وجوه العفاريت احادها مهولة واذانها مذهبة مملوءة
بالجواهر واسنانها واعينها مصنوعة من الذهب والفضة والزجاج وكان النظر مع الاحترام الى هذه
الالهة الغير مألوفة الصورة من العبث والخيالات وعلى الخصوص طرق الاستحمام الجارية في مياه نهر
الگنج فانهم لا يصعدون ويمسكون الا في الما ويغطسون انفسهم الى فوق روسهم ويرفعون الما بايديهم الاثنين

Copyright © King Saud University